احمد امين معلم الأدب ورائد الجيل

بقلم السيدة وداد سكاكيني

حزنت من اجله قبل موته ، فقد أحسست دنو اجله ورحيله ، يوم رأيته للمرة الاخيرة في المجمع اللغوي بالقاهرة يشهد دخول صديقه توفيق الحكيم في عداد المجمعيين ، وكان احمد امين يحب فن الحكيم فلم يتخلف عن حضور الحفل البهيج على الرغم من الضعف الذي هد جسمه واضناه .

لقد اقبل فاتر الخطوات واللمحات ، وقور الطلعة ، فدعوته للجلوس على مقعد بجنبي وما إن رآني حتى حمد لي ما كتبت عن آخر مؤلف له وهو « قاموس التقاليد والتعابير والعادات المصرية » .

كان مجلسه يومئذ على تخوم الدنيا مشرفاً على عالم آخر طالما دومت روحه في آفاقه ، باحثة عن الخلود والخالدين ، باعثة آثارهم واخبارهم في كتبه وتآليفه ، وقد عجبت لذلك البرزخ الذي جلس فيه احمد امين يشهد انتظام صديقه الحكيم في سلك الاعضاء المجمعيين وكأنه جاء مودعاً وفي المجمع انداده وصحبه ، فلم يشأ ان يغادره ويفوته آخر مجلس فيه قبل ان يلقي نظراته الاخيرة الكليلة على هؤلاء الذين سلخ العمر معهم بين مطارحات الفكر ومجالس الثقافة والادب .

كنت أرنو اليه متأسفة مشفقة ، وقد وهن جسمه وكلّ بصره وارتعشت يداه فكان مثل الشمس في الاصيل ترمي بشعاعها الواهي وقد اوشكت على الغروب ، فما أقسى ما تصنع نواميس الحياة ! انها حتم على الجميع : ولقد قيل في الاثر ، « كل امرىء ما يحسن » ، وهذا ما ينطبق في عصرنا على المذاهب التي تغلو في تكريم الانسان ، فليت حوادث الدهر سكبت بقرطاس فتجاوزت عن المحسنين المخلصين الذين منهم احمد امين ، وليس هذا مني تجانفاً او معارضة ، لكنه تظلم وابتئاس من اجل أناس تفردوا بمزايا لم تكن الا في الاقلين عدداً ممن يظهرون على اطراف السنين والاجيال ، فلو رأينا هذا الفقيد الحميد من نشأته الى مماته مثلما نرى شريطاً سينمائياً ، وهل كانت الحياة في حقيقتها الا من هذا القبيل ؟ فأين نحن الآن من احمد امين ؟

إنه اصبح بجثمانه في عالم العدم إن صح ان يكون للعدم عالم ، ولم يبق إلا ذكره واثره فيما أبقى من كتب قيّمة واعمال صالحة ورسالة علمية يؤديها من بعده كل من اهتدى بهديه واقتدى بكفاحه وسيرته ، وإن في ذريته التي اعدها للخير والوطن من سيخلفه إن شاء الله .

ولقد تساءلت هذا التساؤل لأستقري مراحل البناء في هذا العالم الأديب ، فهو لم يبن بيسر وطفرة ، وإنما بنى بزيت الليالي التي طالت وترجرجت مصابيحها على صفحاته ، يحبرها ويحررها بدقة ومعرفة ، وأنشأ هو نفسه الكبيرة بعلم وغلاب ومراس في طويل الأيام والأعوام حتى أعطى الزمان فيه ذلك الانسان الدؤوب الموهوب الذي ملأ مصر ودنيا العرب والاسلام بذكره وآثاره ، وأقبل عليه عارفوه مثل إقبال العطاش على النبع الروي الفياض .

ولئن كان خير ما أوتي المرء رجاحة في العقل وخصباً في القريحة ، فإن هذا الخصب والرجحان شغلا احمد امين وجعلاه لا يستريح ، فقد بقي يؤلف الكتب ويملي الخواطر حتى آخر لحظة من حياته ، وكان يحمد لربه حين دهمه الداء منذ بضع سنوات ان أبقى عليه سلامة الفكر والمنطق . ولما تجنى عليه عالم من دمشق كبير نشر في الثقافة يدافع عن نفسه معتصماً برجاحته وكرامته ، مشفقاً على ظالمه من جموح الرأي وانتفاضة الأعصاب .

أما عقله وعلمه فكانا يظهران من بين سطوره وآثاره ظهور النجوم في صفحة السماء نيرة متلألئة ، ولو ان نصيبه جرى في الفلسفة وحدها فتمرس بها واختص بدراستها لكان احد اساطينها

في العصر الحديث، فقد اتخذ المنطق مصباحاً في تأليفه وتصنيفه، ولهذا ظهر في احكامه الأدبيـــة التحديد والاستقصاء في تثبت وتدقيق، فلم يمل مع الهوى ولا انحرف عن الغاية بل اتخـــذ الحقيقة هدفاً ومراداً، وحين صور الحياة العقلية في فجر الاسلام وضحاه وظهره، وفي يوم الاسلام وغيره، أعطى قراءه مثالاً من العالم الذي لا يعبأ برضى طائفة دون اخرى ولا بقوم دون قوم ولو بقي وحده في صف واحد والعالم جميعاً في صف آخر. وقد جرّ عليه هذا المذهب تعباً وغضباً، فلم يأبـــه للناقمين، لكنه بات محزوناً لأنهم لم يفهموا عنه مقاصد قوله وتأويله ولا قدروا الحرية والسلامة في كلامه ومرامه، فهو لم يبتـغ زلفى ولا ذكرى ولا داور أو حاور في موضوعات شائكة، بل خاض فيها غير متهيب ولا متحرج وخرج بما ارتآه تفكيره وتعبيره، ولا بد من يوم قريب تواعدنا فيه بمقـــال أزحزح بالبرهان الحرج عما ثار حول آراء استنبطها مؤلف فجر الاسلام وضحاه ولم يتقبلها كثير ممن خالفوه وناقدوه، وما كان هـذا المؤلف متأبياً على الحق فإذا لاح له الصواب عاد اليه راضياً.

على ان المتتبع لحياة الفقيد وسيرته كان يشهد سير تفكيره وشعوره، فلم يكن على تعمقه في الأمور وشدته في الحـــق غليظ القلب متعنتاً او قاسياً وإن غلب عقله دائماً بل كان وديع الروح طيب النفس يعطف على المستجير والهضيم وطالب العون والتشجيع، فيساعفه على تحقيق مبتغاه، لكنه يعـود الى حرية الفكر التي آثرها في حياته العلمية فيرضي نفسه بنصيحـة يسديها او كلمة يسدد بها خطة أنجزها لمتعلم ولم يجعلها حجة له او مجازاً، ولن ننسى ما اتفق له حين استجاره طالب من عندنا حدب عليه وأغاثه، ولما كان الغد نشر الاستاذ احمد امين فكرة الاسبوع بمجلة «الثقافة» وفيها حقيقة رأيه بما صنع الطالب لئلا يخامره الغرور.

وكان هذا دأبه في حرية الحكم على الدراسات الفكرية والجامعية، نصيحاً في نقده صريحاً في تعبيره ووجهته، وهـو على جده لا يتحرج من نكتة يمزجها في النقاش والانتقاد.

وقد كتب تحت صورته في شبابه وعمامته امانيه في الوجود بأن يكون نافعاً في الحياة الأخلاقية والاجتماعية، وكأنه رسم يومذاك ناموس عمره ومنهاج علمه وعمله، فما انحرف ولا تعسف وما زاغ ولا راغ، وكان اول آثاره في «الأخلاق» وعاش قاضياً ومعلماً، عميداً ومديراً، عالماً وأديباً حتى آخر يوم من حياته عف الضمير والقـــلم، متجافياً عن التشدق والتأنق يؤثر البساطة في الأداء والمظهر، وما عرف عنـه الملق لحاكم او الزلفى لطاغية كما فعل كثير من الكتاب والشعراء الذين تنصلوا مما فعلوا. وقد سألته مرة وكان منشرحاً للجواب: لم اجد في آثارك مديحاً للملك المخلوع لا بسانحة عيد او ميلاد او حفـل عام فتبسم ابتسامة طفل وديع وقال:

— ... مرة واحدة، فعلتها على الرغم مني فكانت كلمـة باردة جافة، فيها تكلف يخالف طبعي، فلما قرئت ظهرت جسماً بلا روح، وانكشفت فيها حقيقتي من التأبي على غير ما اؤمن به وأعتقد، فأهملت الكلمة ...

وبرّ احمد امين في نذره وحقق امانيه، فكان نافعاً للجامعة والمجتمع، أفاد منه الالوف من الطلاب والمتأدبين بمصر والبلاد العربية، وتعد كتبه اليوم من أجل المراجع واكثرهـا توثيقاً وتناسقاً، كما ان ثقافته مترامية الاطراف جامعة بين القـديم والحديث.

إن نواحي القول في احمد امين عديدة لا تحصى، ففيهـــا سيرته ووجهته، وفيها علمه وادبه، ومنطقه وفلسفته، وفيهـا مشاركته في حركة الترجمة والتأليف والنشر وانشاء المؤسسات الثقافية، وبين هذه النواحي تبرز المرأة التي كان الفقيد نصيراً لها، مؤيداً لرسالتها ونهضتها، فما وضع في طريقها الشوك ولا خلاّها وجردها من المواهب والكفايات كما فعـل كثير ممن ذموا وجودها وتكوينها واتهموها بالخلو من المزايا الفكرية، فكانوا هادمين ناقمين، اما احمد امين فقد كرمها في امه وزوجته وفي بناته وتلميذاته، وقدرها قدرها في كل ذات فكر ونبوغ، وكان يرجو ان يعم التعليم ويمتد الى نساء الريف لتحظى القروية بنور العلم والحضارة.

لقد دخل احمد امين بغيابه عن دنيانا هيكل الخـــالدين واصبح في ذمة التاريخ، فلو احصينا حسناته في كفاحه ومجهوده وما لم يعرفه الجمهور من مساعيه الطيبة لرجحت على ما قدم جمع من العلماء والادباء. والفقيد يرحمه الله معدود لدى اهله وعارف هيئته وشكله ميتاً لغيابه عنهم، امـا لدى الاكثرين في مصر والعالم العربي والاسلامي ممن لم يروه إلا بكتبه ومقالاته وبحوثه ودراساته فهو حي باق بأثره وذكره، والموت إذن نسبي إذا نسب الى احمد امين، ومن ها هنا سر خلوده.

وبعد فلئن لم أكن من تلميذاته في الجامعة فقد قدر لي ان

مفهومات في الإنسان والفن

بقلم : رجاء النقاش

— ١ —

إن موقف الاستاذ محمد توفيق حسين [١] من قصيدة السياب ينطوي على خطأين: أولهما في قوله « إن كل بيت في القصيدة عصب يتنفس إحساساً، وكل صورة فيها تضج بدم الحياة ». فهذا الكلام يحمل مفهوماً للشعر هو نفسه المفهوم الكلاسيكي الذي ينظر إلى البيت على انه وحدة فنية وشعورية قائمة بذاتها، دون العناية بالقصيدة كتجربة، كعمل متكامل لا انفصال بين جزئياته، وهذا المفهوم الكلاسيكي هو الذي حققه الشعر العربي القديم. وفي تاريخ تطورنا الفني، ثورة على المفهوم القديم، تبلورت، واخذت صورتها الايجابية الناضجة في المدرسة الحديثة، التي يدخل السياب ضمن نطاق الرواد فيها مع: صلاح عبد الصبور، وفدوى طوقان، ونازك الملائكة، وغيرهم. ومن ابرز مقومات هذه المدرسة الحديثة، الانفصال الذي يكاد يكون مطلقاً عن الواقع الفني القديم في ظاهرتين: أولاهما بروز القصيدة كوحدة موضوعية حتى ان كثيراً من الشعراء الذين ذكرناهم قد اتجهوا إلى خلق عالم اشبه بعالم القصة، فتجد الحدث action، متوفراً كعنصر بارز من عناصر بناء القصيدة. وقد كان الشاعر القديم يعتمد على تسجيل خاطر نفسي، او وصف خارجي للانفعال في وحدات منفصلة هي الأبيات، وكانت هذه الظاهرة الجديدة في شعرنا الحديث داعية بالضرورة إلى شدة التماسك في وحدة القصيدة حتى اصبح من « المستحيل » النظر اليها كجزئيات منفصلة — والظاهرة الثانية المتصلة بالاولى هي التغير الذي طرأ على الشكل Form في الشعر، فالشعراء الذين ذكرنا اسماءهم، قد اصبح من الصعب ان تحصل عندهم على وحدة في القصيدة اسمها « البيت » بالفهم القديم له، فالالتزامات العروضية اصبحت وسيلة يتصرفون فيها بحرية لخلق عالمهم النغمي. ومهما يكن من علاقة شكلية بين الاوزان في شعرهم، وقوانين العروض المعروفة، فاننا نستطيع ان نقول انه لا علاقة، مطلقاً، بين العروض القديم، والشعر العربي في المدرسة الحديثة التي اشرنا اليها، والفرق قائم بين: التزام الشاعر لقانون من الخارج، ولحالة نغمية داخلية يلزم ألا تتعدى هذا القانون الخارجي، وبين التزام مطلق للحالة النغمية الموجودة في نفس الشاعر، حيث تكون هذه الحالة هي الموجّهة وليس لها من ضابط سواها، فإذا اتفق الوزن عند الشاعر الحديث مع القوانين العروضية القديمة، فذلك محض مصادفة.

فالكائن الذي امامنا هو القصيدة، ولا نستطيع ان نقسمها الى ابيات إلا إذا قصدنا بذلك المعنى نفسه الذي نقصده حين نقسم قصة الى سطور.

هذا خطأ، والخطأ الثاني هو تصوره لمشكلة تونس، إذ ان المشكلة في اعتقادنا ليست مأتماً شرقياً للطم والندب، كما يفهم من كلامه، فمثل هذا الفهم هو نفسه عنصر من عناصر المشكلة، لانه لا يبعث في النفس ثورة عميقة واعية، بقدر ما يخلق اندفاعة لا تلبث طويلاً حتى تموت دون إحداث أثر ما، لانها تحمل في داخلها عوامل الفناء. والواقع ان مشكلة تونس وغيرها من مشاكل الشرق العربي، هي العناصر التي تخلق مأساة

(١) راجع العدد الرابع، السنة الثانية من الآداب — والعددين الخامس والسادس في باب « قرأت العدد الماضي من الآداب ».

أكون اكثر من هؤلاء معرفة به وتتبعاً لآثاره. وقد أطلت النظر في كتبه ومؤلفاته والسمع لمحاضراته واحاديثه، وكنت سعيدة برضاه عن أدبي وإهدائه إلي اكثر الكتب التي وضعها او شارك في تحقيقها، وطالما كان يلقانا بمجلسه — قريني وانا — ليحدثنا عن آخر مقال كتبه او كتاب بين يديه يتوخى فيه الجدة والاتقان، ولعله أكمل التأليف لخاتمة كتبه وكانت « الشرق والغرب ».

واليوم أترحم عليه وأصوره في هذه اللمحة الخاطفة لتصدر عن البلد الذي احبه وكان له فيه قراء وتلاميذ أحس روحه مدومة فوق رأسي باسمة لي كبسمته الهادئة في الدنيا، فيا رحمة الله الواسعة، ابسطي على الفقيد رياحين الخلود وسلام الطيبين المخلصين.

القاهرة — وداد سكاكيني